الباب الخامس

قاموس السياسة

مقدمة :

هذا كتاب ينهج فيه برنارد شو منهجاً جديداً . فلا يطرق باب المزاح أو السخرية أو التهكم كعادته ، وإن كان الكتاب لا يخلو منها إذا دعته الضرورة القصوى إلى ذلك ، بل يجمع بين دفتيه خلاصة تجاربه وعصارة أفكاره . كتاب يهدم المساوىء التى تتذمر بها الإنسانية فى عصرنا هذا ، ويبنى من جديد عالما فاضلا مهذبا .

وهو والحق يقال : كتاب يجمع تجاريب حكيم بلغ من الحكمة والرشاد شأوا بعيدا أهله لكى يخرج على الناس بهذا السفر الجليل . . بمواهبه التى لم يبلغها إنسان فى العصر الحديث .

بعد سبعين عاما كاملا ، قضاها برنارد شو فى كفاح مستميت بحثا عن ألوان المعرفة ، يخرج علينا بهذا الكتاب ، فيزيح الستار عن جواهر تجاربه وقوة أفكاره يجمعها كلها فى كتاب فريد ، ويقدمه لى ولك هدى ورشاداً للعالمين .

يقول برنارد شو : هناك عوامل خمسة تؤخر من التقدم ، وتسعى بالإنسان إلى فشل محقق . . بها يضل المجتمع سواء السبيل ، ويتخبط خبط عشواء حتى يشرف على الهلاك . . فإن لم يتدارك الإنسان أخطاءه الخمسة ويعمل لها كل حساب ، وهى أن يتمشى مع روح العصر ، ويتخلص مما يحوطه من خرافات وأساطير وخزعبلات عفا عليها الدهر ، واستسلم لها الإنسان استسلام الضعيف الواهن ، فلا أمل يرجى من إصلاحه ، ولا فائدة ترجى من إطالة الكتابة فيها ، وتحمل الألم فى سبيل شرحها وعرضها لى ولك . .

بل إن المدنيات الراهنة ، سوف تتحطم اشلاء ، وتذهب كغيرها من حضارات ومدنيات التاريخ التى طمست معالمها وذهبت هباء منثوراً على تتابر الأيام وتبعثر السنين .

هذه العوامل الخمسة هى أيضا أسس نجاح المجتمع ، إن أراد بها خيرا ، وسار بها ناحية الكمال المطلق ، ولم يتجه بها فى طريق الرذيلة أو الفساد .

يدهشك أن تعرف هذه العوامل ، التى بدونها يفشل المجتمع الحديث ، وبها أيضا يفشل المجتمع الحديث فشلا ذريعا ، هى ليست جديدة عليك ، ولكنها معروفة لك منذ عهد طويل ، فلا غضاضة من ذكرها وهى : الاقتصاد والسياسة والعلوم والتعليم والدين ! !

والعلاج الذى يقدمه برنارد شو للمجتمع العصرى الحديث هو برنامج واسع المدى ، من ناحيتى التعليم الفنى والإجبارى ، ومن ناحيتى التعليم التطوعى والتخصصى .

وبجانب ما يبديه برنارد شو من آراء طيبة وصائبة فى السياسة ، تتجلى لك روحه الفلسفية الصرفة ، يظهر لك فيها كعدو لدود « للتطعيم الإجبارى » وشو المناهض « للتشريح » وشو « النباتى » ، وشو المعضد « لمذهب الأوثانيسيا - أى الموت الطبيعى » وشو العامل على « هدم وإلغاء السجون » الخ .

يعالج هذا السفر الجليل موضوعات خطيرة اخترنا بعضها لأنها تهم الرأى العام الشرقى فى الوقت الحاضر ، وستهمه إلى مائتى عام من اليوم على أقل تقدير ! !

وهذه الموضوعات هى : (١) سياسة التعليم وخطر المدارس (٢) الرجل المتعلم ونصف المتعلم والمتعلم الفاسد (٣) الرجل الاقتصادى وأخيراً (٤) نظام الأحزاب فى بريطانيا .

ومما لا شك فيه أنه سيكون لهذه الأبحاث أثر بعيد فى نفسية القارىء ، وذلك لأنها موضوعات جديدة وطريقة يعالجها عالم فيلسوف بطريقة تخالف كل من

سبقوه من علماء وفلاسفة فى تحليلهم لدقائق هذه الموضوعات للوقوف على جواهرها النادرة التى يستخرجونها عادة من الأعماق ، ولا يتشبثون بالمظهر أو بالقشور .

أولا ـ سياسة التعليم وخطر المدارس

تمهيد :

كان لنظريات العالم النفسانى فرويد عام ١٩١٠ ـ أى اول ما ظهرت ـ شأن كبير وتأثير واسع المدى على نظم التعليم المعاصرة . واضحت النظم القديمة مهددة بالزوال أمام اكتشافات فرويد الحديثة ، وآرائه فى تعليم الطفل . ولكن برناردشو كان عنيدا حتى أنه لم يتأثر مطلقا بفرويد أو بنظرياته ، وذلك لأن آراءه الخاصة فى التعليم كانت جوهرية فى ذاتها ، أى أدق وأبعد أثرا من آراء فرويد .

وإذا حاولنا أن نستعرض حالة التعليم فى عام ١٩١٠ عند الانجليز مثـــلا لوجدنا أن الطالب المبتدىء كان يدرس بعض المواد الاكاديمية ، واللغات الأوربية كاليونانية إجباريا . وكان برنارد شو وقتها فى أوج عظمته ، وذيوع شهرته . لا يفتأ يقول : لا يعرف إنسان إلى أى طريق أطفالنا مسوقون . لجميع الطرق الحالية تؤدى كلها إلى مساوىء الحضارة القائمة ! أو « الجهاض الدنىء هو ذلك الذى يحاول أن يظهر شخصية الطفل ثم يطمس معالمها ! » وغير ذلك من صرخات عديدة أرسلها شو منذ أربعين عاما . ولا شك أنها كادت تقتلع جذور المدارس ، وسببت لها من القلاقل ما تسببه الزلازل للأرض ..

ومن أشهر أقواله فى هذا الصدد ، موجها الحديث إلى رجال التعليم : كفاكم أيها البلهاء تعليم اللغة اليونانية ، وتدريسها الإجبارى والنحو والصرف وما اليهما ، وحاولوا أن تفهموا أن التعليم هو الحياة . وليس الدرس والجلوس إلى مقاعد خشبية لا تغنى ولا تسمن من جوع . فللطفل الحق كل الحق فى أن يصير إلى مايصبو اليه طوعا واختيارا . وليس للمدرسة أن تتحكم فى مصيره وتحويله إلى ناحية مخالفة لطبعه وهواه . فإذا كان يطمع فى أن يكون مصارعا فليتركه أبواه يشق طريقه نحو

جورج برنارد شو

فى بدء رجولته ١٩٠٥ فى مستهل حياته ١٨٧٩

هدفه من غير أن يحولا دون إرادته وإن منعه أبوه أو أخوه أو تدخلت أمه أو أخته فى تحويل دفته إلى ناحية أخرى ، فقد تتولد فيه ناحية كراهية لكل منهم ، وهو محق فيما يذهب اليه !

وعد رجال التعليم هذه الأقوال ضلالا مبينا ، فقد احتقر شو المدارس ونعى نظامها ، ومن ثم سارت أقواله مباشرة إلى طريق الحياة المفتوح على مصراعيه .

ولم يأل برنارد شو جهدا فى مهاجمة رجال التعليم . وغدا يصرح بآرائه وحكمته متكهنا بمـــا قد يتمخض عنه المستقبل تماما كما فعل شكسبير فى روايته المشهورة « هاملت » حيث حلل « مركب أوديب » بقرون قبل أن يحلله فرويد !

ولكن أنى للناس أن يسمعوا له . لأنهم لو كانوا فعلوا لأغلقت المدارس أبوابها إلى غير رجعة منه أمد بعيد .

وعكس برناردشو ، فيما ذهب اليه من اقتراحات ، صورا من أيام طفولته . وكيف أن المدرسة لم تؤثر فى تفكيره أو تعمل على تهذيب نفسه وإصلاحها . وما كاد يتخذ من نفسه مثلا ، حتى انبرى له جهابذة رجال التعليم ، وراحوا يصبون عليه جام غضبهم ويرمونه بأنه يخاف الأطفال ، ويتخذون مما قاله عنهم فى إحدى مقدماته دليلا قاطعا على آرائه العرجاء ، ويذكرونه بأنه صاحب القول المشهور « الطفـــل هو ذلك الحيوان الصغير ، الدائم الجلبة ، ذو القابلية الشرهة للمعرفة والمثابرة الجنونية على القاء السؤال تلو السؤال . . »

وفي رأيي ، وقد انفردت بدراسة برنارد شو سنين طويلة ، أن الرجل كاتب مجيد ، وناقد نافذ البصيرة فى كل ما كتبه عن سياسة التعليم . وذلك لأنه كثيرا ما كان يلقى السؤال تلو السؤال فى موضوع التعليم الحساس ، وكان لا يحظ برد مقنع أو برهان دامغ من رجال التعليم الذين تهجموا عليه . بل كل ما كان يحصل عليه كذب ومراء من جانب أصحاب المدارس ورجال التعليم خوفا منهم على بضاعتهم من الكساد .

ومن طريف ما يذكر أن «أونيل» المربى الانجليزى المعروف ، وصاحب الفضل الأكبر فى إصلاح برامج التعليم الانجليزى الحديثة انبرى له يقول « إن الطفل الحديث

يامستر شو لا يكثر من السؤال ، لأنه إن سأل مثلا عن أصل مولده ، وكيف جاء عن طريق أبويه . عددنا ذلك « مشكلة » يجب أن نعمل لها كل حساب ، ومن ثم لجأنا إلى تطبيق نظريات علم النفس التى لا تعرف أنت عنها شيئا »

كتب برنارد شو عام ١٩١٠ يقول بأن الأطفال يجب أن يدرسوا بعض تعاليم الدين . وهو ذلك الملحد الذى رماه الناس بالإلحاد ، ووقف القارىء على نص نظريته المشهورة فى ستين صفحة من هذا الكتاب . ولما استكمل وعيه كتب فى عام ١٩٤٤ يقول « يجب على الطفل أن يدرس الدين ! »

وفى معظم مقدماته كان يقول « على الطفل أن يتعلم كيف يجلس هادئا متزنا .. »

زد على ذلك ما كان يقوله « على الدولة أن تكذب على الأطفال لتحفظ توازنهم ، وهذه الأكاذيب يجب أن تختلف بنسبة أعمارهم . . »

ويفقد برنارد شو ثقته فى الطفل « لأن حياة الطفل يجب أن تكون منظمة إلى درجة بعيدة ، وفى جميع أدوارها ، لأن هناك أشياء يجب أن يعرفها ويتعلمها النشء . فالرأى العام بعيد كل البعد أو غير موجود فى دائرة الطفل ، لذلك يحتاج إلى تضييق لا إلى اطلاق حرية . . »

ويقول أيضا « يجب أن يتعلم الطفل كيف يعيش عن سعة ، لا أن يكون تحت رحمة الأشغال الشاقة !! »

وهذا القول الأخير لا يقوله أو ينزع اليه عالم نفسانى ، بل يقوله كل فيلسوف . لذلك ترى معي أن برنارد شو ليس عالما نفسانيا بل فيلسوفا . وهو عندما يتحدث عن الأطفال لا ترشده فلسفته ، ذلك لأن تربية النشء تعتمد على علم النفس فى جل أمرها . فسيكلوجية الطفل هى أن تكون للطفل شخصية خالصة من الخوف والشر إذا أمكن . وعلماء النفس اليوم يقيسون السعادة أو الشقاء بما يرتسم على وجوه تلاميذ المدارس ، وما ينعكس عليهم من آيات الفرح أو الجزع ، وهنا لابد أن أعيد قول برنارد شو « الشخص المشغول البال ليس سعيداً أو شقيا ، ولكنه مجرد إنسان يتنفس ليعيش »

يستشهد « اونيل » بأن برنارد شو أخطأ خطأ كبيرا ، لأنه تغاضى عن معالجة

مشاكل النشء ، ويلومه لأنه كان يقول بأن تربية النشء يجب أن تقتصر على تعليمه كيف يفكر ، وهو لا يرى أن الطفل مخلوق مركب من عدة عواطف هى الحب والكراهية والخوف وغيرها ، بل يرى أن التعليم يجب أن يكون ديناميتيا ، ولكنه لا يرى أن الطفل ديناميت فى ذاته .

وإذا كان فرويد يعتقد بأن الحياة الجنسية هي كل شيء . فإن شو لا يرى فيها هذا الرأى بل يقول « اخبرهم عن حقيقة وجودهم ، فالحق يجعلك حراً على الدوام . »

والمتتبع آراء برناردشو منذ عام ١٩١٠ ، والمستوعب كتابه الجديد « قاموس السياسة » يرى أنه لم يأت بجديد يضيفه إلى سياسة التعليم المعاصرة . لأنه لم يتأثر مطلقا بتقدم علم النفس . والحقيقة فى أمر برنارد شو أنه ينظر إلى مدى أبعد مما ينظر اليه رجال التعليم أنفسهم . وقد يكون نظام مدرسته مفتقرا إلى نظريات قوية ، ولكن فلسفته المدرسية اغنى بكثير من أى فلسفة أخرى معاصرة لها ذلك لأنه يعتقد بأن التعليم الصحيح هو ذلك الذى يقفز بالنشء من مجاهل الطفولة إلى شرخ الشباب من غير مضاعفات أو رد فعل .

ويعتقد كثير من الناس أن تأثير برنارد شو على سياسة التعليم ليس بالشيء الذى يذكر . ولكن البعض يعده من أكبر مصلحى التعليم فى الوقت الحاضر ، لأن تعاليمه منطقية وحكيمة ، فى وسعها أن تهدم وتقوض بعض النظم التى جرت عليها المدارس منذ عهد طويل .

وينادى برنارد شو بهدم المدارس ، كما سيرى القارىء فيما بعد . وهذا لا شك نداء يخالفه فيه كل رجل من رجال التعليم فى كل صقع ومصر ، والناس يعتقدون أنه كاتب فقط وليس عالما نفسانيا على علم بخبايا النفس .

ويقول « اونيل » فى معرض الحديث عن رأيه فى أقوال برنارد شو التربوية « إننى أكتب ما أراه ولكن شو يكتب ولا يرى ، بل يكتفى بنشر الأشجار فى حديقته ! ! ولهذا أقول إن برنارد شو فى وسعه أن يكتب رسالة ضافية ينقد فيها نظم التعليم المعاصرة ، ولكنه لن يصبح مثلا وزيراً للمعارف ! ! »

أخطار المدارس ووجوب هدمها

يقول برنارد شو :

يصير الأطفال فى سن معينة كالجرذان تماما ، يخافون الظلام والأشباح والكلاب والبقر ، كما يتوهمون القصوص وحية الجرس « القرطال » . وهم فى هذه الحالة يقعون تحت رهبة الخوف المطلق ، ويتقدم بهم العمر ، فيشعرون بالخجل لجبنهم ، فيقعون من جديد تحت نير حب التظاهر بالشجاعة . ومن ثم يقدسون العظمة الفارغة ، ويفخرون بحب المظهر واللباس . ويشهدون بسرور دافق ما ينزل بغيرهم من عقاب ، فيخضعون تدريجياً إلى نظم وقواعد الخلق والسلوك ، إلى غير ذلك من قوانين ومظاهر المجتمع الكاذبة . .

وهذه الحالة لها رد فعل شديد على نفسية الطالب . لأنها تولد فيه إجهاضاً لا يسلم منه المجتمع طول الحياة . ودعنى استعرض بعض ما يحدث فى أرقى مدارس انجلترا ، ولنضرب مثلا بصبي شاءت له الأقدار أن يكون أبواه من الأثرياء . فإن المدرسة التى يلجأ إليها هذا الطالب لن تكون مدرسة عادية . يجاور فيها ابن حداد أو ابن قصاب ! بل هى مدرسة يجلس فيها إلى ابن أحد اللوردات أو الأمراء !

وأول ما تغرسه فيه هذه المدرسة أن العمل اليدوى ليس من صفات الجنتلمان ! بل شغل الوظائف الحربية أو السياسية هو ما يجب أن تصبو إليه نفسه ؛ كذلك الصيد والقنص والسباق يجب أن تكون جميعها هواياته المحببة إليه فى أوقات فراغه ، وتعلمه أن الدين هو الذهاب كل يوم أحد إلى كنيسة الناحية الفاخرة فى أبهى حلله وثيابه . . ثم تطلعه على أن الاندماج فى السياسة قد يخلق منه ذلك «الرجل الرمزى» الذى يعيش معبوداً وسط الرعاع طول أيام حياته . وأنت بذلك لن تحصل فقط على عضو جديد « لحكومة الأثرياء » الذى إن تحدث فإنما يتحدث بسلطان المال . بل تحصل على « إله أهلى » غرائزه الاستعمار ! . . ثم على إنسان غريب التكوين ، أخرجته لك مدرسة راقية مثل « أتون » أو « هارو » أو « أكسفورد » التى تتخرج فيها كل عام طبقة جديدة تضاف إلى طبقة « البلوتقراط » الملعونة ! !

وهذا هو بلا شك الردة إلى نظام الإقطاع.والانحطاط إلى حكومة «البلوتقراط» التى تعترف بتراص الطبقات ، طبقة فوق طبقة ، أو النظام الذى يحفظ كيان الممتلكات فى يد الأفراد . والألقاب التى يتوارثونها أبا عن جد . ثم الثروات الضخمة التى تؤول إلى أحفادهم لقمة سائغة . . وقد ظل هذا النظام قائما حتى أوائل القرن التاسع عشر ، حينما سلم النظام الارستقراطى زمام الحكم إلى رجال الأعمال الذين أثروا من تجارتهم بفضل الانقلاب الصناعى ، وكان أولاد الأغنياء يرسلون إلى المدارس لا ليحصلوا على إجازات أو ثقافة ذهنيـة أو أية معلومات أخرى . بل ليدمغوا بطابع أولاد الذوات الممقوت . كأعضاء جدد فى دولة البلوتقراط !

هل أذكرك « برباط المدرسة العتيقة ؟ » الذى أدخل لعبة الكريكيت والتنس والجولف كألعاب راقية تقتصر على أولاد الذوات المترفين !! والايتيكيت ولهجة الكلام الفيكتورية الخاصة بهم دون سواهم ، وهم لا يعرفون شيئاً عن العالم الخارجى أو عن مساوئه وأخطائه ، لأنهم ملغمون ، مطموسون بعادات وغطرسة القرن السابع عشر !!

وعند ما أصف « رباط المدرسة العتيقة » فإنما أصفه كتنين هائل جثم على صدر القرن التاسع عشر . لا أريد أن يفهم القارىء أننى قصدت أن الثورة الصناعية هى الأخرى تنين آخر ، أو أن الصعلوك هو أيضاً تنين مرعب . . ومن الحق أنه ما دام هذا الصعلوك يعمل لكسب عيشه ، فقد يتحول إلى ذلك التنين . من يدرى ؟ ولكنه على كل حال ضعيف فاتر لا خطر منه . مخلوق على أية حال !

ولست أنا صديقاً للفقير أو عدواً للغنى كما يظن بعض الدهماء أن هذه من صفات الرجل الاشتراكى . . فعند ما كنت طفلا كانت مربيتى تأخذنى للنزهة كما تنزه كلباً !! كانت تصحبنى إلى أقذر الأحياء لزيارة أصدقائها بدلا من أن تنزهنى فى الأماكن الراقية المعروفة . ومن الطبيعى أنه تولدت فى كراهية هذه الأحياء الفقيرة وساكنيها . وأود اليوم من صميم قلبى أن تحرق هذه الأحياء الرخيصة ، ويعدم هؤلاء الساكنون . بالرغم من أننى ما زلت أذكر أنه أيام صعود نجمى كانت تدوى فى أذنى عواصف التصفيق من هؤلاء الرعاع الذين أريد إبادتهم من

الوجود . ولكنى ما كدت أفلت من يد مربيتى ، حتى ارتدت المجتمعات وتعرفت على طبقات السيدات والأسياد ، ولم أجد فيهم من يعرف شيئاً عن الرعاع الذين اندمجت أنا فى أوساطهم ، وعرفت عنهم الكثير . وهؤلاء أيضاً يجب إعدامهم .

كذلك تعلمت أن مثل هذه المدارس تجنى جناية كبرى على رجال الدولة . فيتخرج فيها الاقتصادى ليبحث عن المال ، ويستغل جهل الشعب . ويسير رجل القضاء فى الطرق الملتوية ، بل الإجرامية أحياناً لتحقيق أهدافه التى يسعى اليها ! حتى رجل الدين الذى يحث الناس على الفضيلة وينهى عن المنكر ، لا يلبث هو الآخر أن يتبع طريق الرذيلة ويعيث فى الأرض فساداً !

ولما كان العهد الإقطاعى فى أوج عظمته ، كان لأوربا الغربيـــة إله واحد ، وسماء واحدة ، للبشرية كلها ، وجحيم واحد ، هو جحيم «دانتى» حيث تجمعت فيه كل الأرواح فقيرة وغنية ، لطيفة ورذيلة . أما اليوم ، فإن الجنتلمان الإنجليزى يعتقد فى « إله إنجليزى محدود الفكر » كما يعتقد الألمانى فى « إله أشبه بتوردك أو وطان » والفرنسى فى « إله مادى أو إله لافرنسى » فى حين أن لا أحد منهم يعتقد فى أى جحيم من أى نوع !!

والحروب أصبحت شبيهة بحروب الصليبيين المتعصبة ، مجهزة بملايين الجنود وملايين الجنيهات ، وملايين المعدات المهلكة المبيدة ، ولو رجعنا إلى الوراء قليلا لوجدنا أن « حرب الروزوس » استأصلت طبقة البلوتقراط لتعطى قوتها وإرادتها لطبقة البلوتقراط الجديدة ، ولكن الحروب الحديثة التى اندمجت فيها المرأة كجندة ومحاربة هددت باستئصال الجنس البشرى ، وحطمت المدنية إلى درجة أنهكت فيها قوة إهلاكها الأشياء وقتلت الناس من اليأس الذى هو أخطر الأمراض !!

ثم تسألنى : لماذا أثير كل هذا فى الحديث عن التربية والتعليم ، فأجيبك بأن هذا وغيره نتائج حتمية لطرق التعليم المعاصره ، ولو كنا أبعـــد الناس نظراً لعالجنا الموقف بمراعاة التحويل من الطفولة إلى المراهقة إلى الشباب ، ومراقبته مراقبه دقيقة ، ثم إجبار رجل الدولة المجرب على معاملة بلده كيتيم فى الرابعة عشرة من عمره يحتاج إلى التوجيه والإرشاد .

وبالطبع هذا النظام كغيره من النظم الحديثة لا يلاقى نجاحاً مرموقا فى عالم الواقع ، لأن الحقائق أقوى مما يحتمل ، فعند ما يغزو رجال الأعمال الناجحون فى المدارس والأعمال التى يتوافرون على أدائها يتكون جانبان : الجانب العلمى ، والجانب العملى . وهذان الجانبان الجديدان يتخطى أحدهما الآخر فى الطريق المعهود . ولا بد لأحدهما أن يتقلص ويموت فى غمار الحياة ، وينفرد الآخر بالتسلط والسياده .

والخطر ناجم من أن رجال التعليم على غير حق فى ضغطهم على الطلبة كى يظلوا بالمدرسة حتى الثامنة عشرة من أعمارهم . ويقضوا ثلاث سنوات أخرى فى الجامعة . وهذا لا شك يقنع الآباء الذين يطمعون فى أن تكون بناتهم سيدات طبقة ، وأولادهم رجال مجتمعات ! ولكن ألست ترى معى أن واجب الدولة أن تخرج نشأ صالحاً من أطفالها . أى أن تخلقهم أعضاء نافعين للمجتمع ، لا أعضاء مدللين ! أو لست ترى معى أن الناحيتين على طرفى نقيض ؟

ذلك لأنه لا فائدة من ارتدائك « رباط المدرسة العتيقة » إذا كان عليك أن تساهم فى عمل يدوى . وأنت ذلك الرجل المدلل المتعلم ؟

ولنفرض جدلا أنه ليس هنالك غير مدارس للفقراء يتعلمون فيها ، فما بالك بمدارس الأغنياء التى يتمرن فيها الأطفال والشبان على حياة اللهو والعبث والبطالة وحب المظهر والرشوة واقتناص الفرص السياسية ، التى أتواضع أنا فاسميها « قيادة الشعب » ؟ .

أرى أن مثل هؤلاء الطلبة يجب ألا يدخلوا مدارس على الإطلاق . بل من الواجب على الحكومات أن تهدم مدرسة كأتون من أساسها . ولكن الجهل المطبق لا يخرج لنا مواطنين أقوياء . وطرق التعليم والتهذيب الحاضرة خير من لاشىء ، ويستمر نظامنا الحالى على ماهو عليه حتى يتقوض وينهار أمام نظام جديد نطمع فيه .

ولكن من الواضح أن لا علاج يمكن أن يقدمه الإنسان لإصلاح التعليم

« الأتونى » مثلا غير إلغاء هذه المدارس إلغاء تاما ، لأنها تحول التعليم إلى ناحية اجرامية بحتة تماما ، كما فعل صمويل بطلر فى روايته المشهورة « ايروهون » حيث الغى الآلة . وكان من نتائج ذلك أن اعتقل الناس أحد الرحالة ، لأنهم وجدوا فى جيب سترته ساعة !!

فعلى نظامنا الأتونى العفاء لارده الله إلى الوجود إذا قيض له الفناء .

أما ما اقترحه أنا ، فهو وجوب إنشاء مدارس لتعليم الطبقة المتوسطة ، على أن يكون فيها الأولاد والبنات جنبا إلى جنب ، وأن يقسموا احياتهم اليومية بين المدرسة والبيت . كما نجد اليوم فى ايرلندا أن الطالب الخارجى يقضى نصف يومه فى المدرسة ولا يعود اليها بعد الظهر ، لأنه قد يجد فى منزله عملا يفيده أو يوسع من خبرته ، بدلا من الانكباب على الاستذكار يوما بأكمله ، بين جدران أربعة يمل فيها الطالب ، ويود لو قرع ناقوس الانصراف لينطلق من سجنه . . .

وأذكر أننى لم أتعلم فى المدرسة آداب السير والسلوك ، ولم يمنعنى النظام المدرسى القائم آنذاك من المشاجرة والاشتباك مع الاطفال فى مشاحنات عنيفة لا سيما مع زميلى الذى كان يشاركنى مقعدى .

لقد كرهت المدرسة ولم أجد فيها شيئا ينفعنى ، ولما هربت منها فى سن الخامسة عشرة ، حكم على بالأشغال الشاقة خمس سنوات فى مكتب من مكاتب رجال الأعمال ، وعرفت فى نهاية الحكم أشياء كثيرة عن العالم الخارجى ، أكثر مما يعرفه خريج اتون أو اكسفورد أو هارو أو حتى كامبردج !

ولا تعجب أيها القارىء إذا عرفت اننى تعلمت آداب المقابلة والسلوك من كتاب قرأته وأنا ذلك الموظف الصغير !

وهكذا بدأت أهذب نفسى ، واغذيها بكل ما تحتاج اليه ، بدلا من انتظارى السنين الطويلة ، مرغما تحت تأثير غيرى ، انتظر منه أن يهذبنى ويعلمنى ما كان فى وسعى أن أتعلمه وحدى . . .

اهدموا المدارس واستريحوا . وانظروا إلى المستقبل نظرة جدية وكفاكم هزالا ...

ثانياً ـ الرجل المتعلم ونصف المتعلم والمتعلم الفاسد

يقول برنارد شو فى الرجل المتعلم :

« إن حكوماتنا العرضية ليس فى وسعها أن تجعل معاهد التعليم فى حالة مرضية على الدوام .

وفشلنا مصدره نظام المدرسة العتيق الذي لا يتغير ، ففى الماضى البعيد عند ما كانت كتبنا ومراجعنا الدراسية مكتوبة باللغة اللاتينية ، كان علينا أن نقرأ ونكتب اللاتينية ، وإلا عسر علينا فهم الكتب ومراجعتها . فبدون اللغة اللاتينية كنا جهلة لا نفقه شيئاً . أما اليوم ، فاللغة اللاتينية أصبحت لغة ميتة لا تكتب بها الكتب ، فالرجل الذى لا يفهم لغة أخرى هو فى الواقع رجل جاهل وفرق ذلك أصم وأبكم أيضاً ! ! ولكن نظام المدرسة يتجاهل هذا التغيير ولا يزال يقر بأن اللغة اللاتينية هى لغة الأدب والثقافة . . ونتيجة ذلك أن طبقة حكامنا الذين تدرجوا فى المدرسة الأولية إلى الثانوية الى الجامعة ، طبقة جاهلة كأى طبقة متمدينة أخرى يمكن أن تكون الآن ؛ وتحمل فى طياتها كراهية ومقتاً لطبقة الدهماء وغير المتعلمين أو التى دونها علما ومعرفة . وهنا أيضاً نجد مرة أخرى ، رغم أنه ليس هناك حيوان واحد فى الوجود ، مثل الرجل المتعلم الجاهل تمام الجهل ، وذلك حكم صادر من «قوة المجتمع» على القوم الذين تعلموا فى المدارس والذين يجب أن يعدهم رجل الدولة كجهلاء غير مثقفين !

وليس جهل الجاهل أو غير المتعلم يخيفنا على الدوام ، رغم أنه أصبح خطراً ، كالتصويت لكل فرد فى الانتخابات النيابية ؛ وذلك لأن الجهل يمكن حصره وتهذيبه . ومن السهل أن يكتب الإنسان على لوح اردوازى نظيف . ولكن ألواح الاردواز فى مدارسنا غير نظيفة . إذ أنها ليست كلها مطموسة بمعالم الشعر اللاتينى فحسب ، بل بحوادث التاريخ المشوهة الخرقاء ، وخرافات البرابرة ، وألغاز العامة ، وهراء القرون المتجمعة المتأكسدة ؛ ولهذا فإن هذه الألواح ليست نظيفة . وكل من يحاول

تنظيفها يعاقب فوراً ، أو أقل ما يقال فيه أنه عدو الله والناس .

ومن ألواح « أتون » و « هارو » و « رجي » و « ونشستر » تعلم حكامنا أن دعاة مذهب « الاعتقاد بالله وحده وإنكار الوحى » مثل فولتير وروسو وتوم باين كانوا ملاحدة زنادقة . وأن واشنجطن وبرجهام يونج وماركس ولينين كانوا وحوشاً مخربين ، وإن معركتى ترافلجار، ووترلو كانتا نصراً حاسما للحضارة وللسادة البريطانيين !!!

وهذه مجرد أمثلة بسيطة للخرافات والأوهام التى تتغذى عليها عقول صغارنا فى المدارس : وفى النادر القليل تجد هذه الدراسات الجوفاء عقولا قوية لا تقبل الخرافات أو تتأثر بأساطير كفوليتر مثلا ، وقد تعلم على يدى « الجوزويت » ثم أصبح عدواً لدوداً للكنيسة الفرنسية . . كما أن فساد هذه الدراسات السياسى ، والأخطاء الكثيرة فى تسلسل تواريخ الحوادث كلها صدعت أركان هذه النظم الفاسدة...

إذا كان للأطفال أن ينشأوا كمواطنين صالحين يجب أن يتعلموا أولا أن لا دخل لآبائهم فى تعليمهم ، حتى إذا كان لديهم الوقت الكافى . ويجب على السياسى أو رجل الدولة أن يضع نصوصاً لتعاليمه ، وإلا فسيجد نفسه يواجه أعسر مشكلة أمامه ، وهى أنه يهيء حضارة لمتوحشين لا إلى مدنيين !! ولكن إذا كانت الحضارة من نصيب كل إنسان يفعل ما يفعله الآخرون . فما الذى يحدث للتقدم ، وللتغيير ، وللتطور ، وللاختراع ، وللإرادة الحرة ولحرية الحديث ، وللحقوق المدنية ، وكل ما يميز الأحياء من الأموات ؟ ! يأتى السؤال ساعياً على قدميه ، لأنه فى أحوال كثيرة تظهر لى ذات أهمية كبرى . أريد أن يتوقف العالم عن فعل ما يفعله كل إنسان ويعمل شيئاً آخر ، حتى إلى الحد الذى تعمل فيه أعمال الأجرام ! . . ويرينا التاريخ أنه إذا لم يسمح لأى إنسان أن يعلن وينادى بهذه التغييرات فإن الحضارة سوف تموت وتندثر . . .

إذن فمن غير القانون والنظام لا يمكن أن توجد الحضارة . وحتى إذا توفرت القوانين والأنظمة المختلفة ، فهناك أكثر من مجال للعصيان وللفتنة ، للقتل والسبى ، للتجديف والكفر ، للهرطقة والانحراف ، للابتداع والاختلاق ، بل إن التغير

والتبدل أو الحضارة لا بد أن تصطدم ، ويعتريها ضعف وانحلال ثم لا تلبث أن تتأثر من جديد ، إن لم يسعفها الاكتشاف العلمي والتهذيب الأدبي . .

وواجب على الحكومات أن تتعلم كيف تضطهد وكيف تتسامح ، وواجب عليها أيضاً أن تقرر باستمرار متى وأين تضطهد ، ومتى وأين تتسامح ؟ ! وواجب عليها أخيراً ألا تتعلم الاضطهاد أو التسامح أو تتخذهما مبدأ من مبادئها .

وما دخل هذا بالتعليم . . بتعليم الطفل والنشء ؟ ! إن لهذا كله أثراً كبيراً في سير التعليم والنهوض به إلى مرتبة عليا !

فللطفل أن يلقن أو يتعلم شيئاً في آداب الحكمة وليكن الدين ؛ ولكن المشكلة تبدأ هنا . . هل لهذا الطفل أن يتعلم دين أبويه أو دين المدرسين الذين يلقنونه العلوم ويغذونه بثمرة قرائح الكتاب والمؤرخين ؟ ! ولنفرض جدلا أن الأبوين من « الإخوة البلموثيين » أو من « شهاد يهودا » وأن المدرس « داروينى لا أدرى المذهب » فإن نزاعاً سينشأ فحواه : هل للدولة أن تتدخل وتجبر الوالدين على قبول تعاليم زمرة المدرسين الذين اختارتهم من غير الرجوع إلى الوالدين ؟ !

في القرن التاسع عشر ، ظهرت بدعة سميت « بالتعليم العلمانى » نادى بها الملحدون واللاأدريون والدروانيون وكان مبدؤهم ألا يعلموا الدين ومبادئه في المدارس على الإطلاق . ولما كان على الأطفال أن يتعلموا ليسلكوا السلوك الحسن كانت هذه البدعة عسيرة التحقيق ؛ وكان مجرد تعميمها إيذانا باستبدال الخوف من الله بالخوف من العصا ! !

واجب الدولة أن تكون مسئولة عن صياغة قوالب النشء بأن تخلقهم مواطنين أحرار ، ولا يجب أن يكون هناك اصطدام بين المدرسة والآباء ، كما يجب ألا يناقش الآباء أبناءهم في مسائل الدين ، بل يتركونهم في رعاية الله وبين يديه . . .

إن بداخل كل إنسان « نورا داخلياً » يرشده إلى حقيقة وجوده . . . وما هو هذا النور الداخلى ؟ !

إنه علمياً . . لا يزال سراً .

ولكن من أجل « وزارة المعارف » أقول إنه وجهة النظر الخاصة التى يدين بها المواطن بقبوله الحقائق التى يعرفها بنفسه .

إذن فمن الضرورى أن يعرف المواطن الحقائق كما عرفت به ، كما أن واجب الآباء ألا يلقنوا الأطفال الكذب بدلا من أن يعلموهم العلم والمعرفة . ولكن مما يؤسف له أن هذه الطبقات جميعهـــا تلقن الأطفـال الكذب الصريح ، وعلى كل فلا مندوحة من أن تخترع الدولة « كذبا » من أى نوع كان ، وتلقنه لصغارها ، لأن هذا شر لابد منه .

فى امكان المدرسة أن تجبر الطفل على إطاعة أوامرها ، ولكن الطفل قد يهمل هذه الأوامر ولا يلتفت اليها . بل يتخلى عن طاعة المدرسة عند بلوغه العشرين من عمره . وقس على ذلك ألف حالة وحالة لها أثرها فى نفسية النشء .

وعلينا أخيراً أن نتذكر أن خرافات كثيرة ماتت ، ولكن بعضها لم يمت بعد من نفوس أناس كثيرين .

اذكر مرة أننى دعيت إلى حفل عظيم « لجيش الخلاص » لإحياء ذكرى مسز « بوث » ودعيت لأننى كتبت رواية كانت بطلتها فتاة من « جيش الخلاص » . وجلست فى مكان ممتاز ، وابتدأ الترنيم حماسيا داوياً ، وما انتهينا منه حتى اندفعت نحوى فتاة صغيرة ، وتناولت يدى ، وقد طغت عليها موجة الترنيم فهزت مشاعرها ، وقالت والدموع تترقرق فى مقلتيها « آه يا سيدى . . إننا نعرف . أليس كذلك ؟! » فماذا كان على أن أقوله ؟!

فهؤلاء الذين يعتقدون فى الحقائق ، ويعرفون عنى أننى لا أعتقد فى خرافات الكتب التى لقنت إلى الأطفال ، لا شك أنهم سيقولون . ان جوابى كان لابد أن يكون هكذا « يا صغيرتى العزيزة . إنك مخطئة . كل هذا الذى سمعته عن السلم الذهبى الصاعد إلى السماء ، فى الترنيمة التى رنمناها معا ، ماهو إلا خرافة . فليست هناك سماء ، ولا سلم ذهبى . هل لى أن ارشدك إلى دراسة أعمال تشاراس برادلوف أو كولونيل انجرسول ؟ إننى أعتقد ما يعتقدان . مساء الخير !! . »

ولكنى لم استطع أن أقول ذلك ، ولم أرد أن أقوله . وكل ما فعلته أنني تظاهرت متأثراً مثلها ، وتناولت يدها وتركتها تعتقد بأننا نعرف ، وأنني أعتقد فى كل شىء تعتقده هى . وكل من يلومنى على هذا الرياء غير صالح لأن يشغل وظيفة وزير معارف فى يوم من الأيام !!

* * *

ويقول برنارد شو فى « نصف المتعلم » :

« ب » لو اعتبرنا أو قلنا إن خريجى الجامعات متعلمون ، فلا بد لنا أن نجد عنوانا آخر لهؤلاء الذين لم يكن فى وسع آبائهم أن يعلموهم تعليما عاليا ، فتركوا المدارس مبكرين ، وابتدأوا يعملون ليكسبوا عيشهم ككتبة ومساعدين ذوى ياقات بيضاء ومعاطف سوداء ، يبدو فهم التعليم الأولى وعادات الطبقة الوسطى وأخلاقها ذات أهمية كبرى . ودعنا نسميهم « أنصاف المتعلمين » .

وأنصاف المتعلمين يظلون على حالهم هذا ، يتوارثون هذه الصفة من الآباء إلى الأبناء ، ويظلون على حالهم من الفقر ، وقصر اليد ، وهم ليسوا فقط أنصاف متعلمين بل « أنصاف مهذبين » .

ولكن أنصاف المتعلمين هؤلاء يسيطرون على الدولة ، ويديرون كل أعمالها . هذه الفئة التى خرج منها شكسبير وديكنز وبنيان وبليك وهو جارث وترنر وبرسل والجار ، وفئة كبيرة من مشاهير الممثلين فى بورباج إلى سلوفان ، مشاهير رجال أعمالهم وجنودهم ومحاميهم ورجال الكنيسة . ولو نظرنا عبر القارة لوجدنا سبينوزا وروسو ، ومئات من المدرسين الذين كسبوا عيشهم عن طريق احتراف الموسيقى . .

وعلى هذا فن طبقة أنصاف المتعلمين ، نرى المستقبل مفتوح على مصراعيه لأصحاب المواهب منهم . ومن الحق اذن أن نقول بأن العبقرية قد تظهر فى كل الطبقات وقد يعوق ظهورها الفقر والجهل فى أغلب الأحوال .

وفى الطبقة الوسطى قد يتمنى على الله أن يصبح عظيما ، إن لم يكن شكسبير أو رئيس الأكاديمية الملكية ، فقد يكون كجون جلين فى شهرته وذيوع صيته ! وجون جلين قد يصبح والحالة هذه بقالا أو ساعى بريد ! !

إن أطفال الطبقة الوسطى يشبون فى بيوت مزدحمة بالكتب وبآلات الموسيقى وفيها قليل من الصور ، فيتعلمون كيف يقرأون ويكتبون بسهولة ، وفى وسعهم أن يحصلوا على المعرفة التى يريدونها . . وهذه المعلومات المكتسبة على مر الزمن تكسبهم حصانة ومعرفة ودراية أوسع من هؤلاء الحاصلين على درجات عالية فى الآداب والعلوم .

ونصف تعليمهم هو الصف الجيد . .

فى وسع هؤلاء أن يصبحوا مدرسين ذوى خبرة واسعة .

وليس العلاج الحاسم لمثل هؤلاء أن نرسلهم إلى اتون أو اكسفورد أو هارو أو كمبردج ، ونخلع عليهم أربطة واوسمة المدارس العتيقة ، ونزحم ذاكرتهم بأفكار وتقاليد السير ايشستر ددلوك ، بدلا من أفكار جون جلين . . وإن كان الرجلان على جانب كبير من الأهمية ، ولكنهما أصبحا قديمين لا يصلحان للجيل الجديد . . بل العلاج الصحيح أن تتركهم وشأنهم يتهلون من ينابع المعرفة من غير قيود حتى يشبعوا ظمأهم ، ويسدوا نقصا لحقهم ! !

من الطبيعى أننا نقسم التعليم المدرسى إلى تعليم أولى وثانوى وفنى حر . . أما طبقة البلوتقراط فيذهبون مذهبا آخر ، لهم مدارس إعدادية ونموذجية وخصوصية وفيها يتجه الطالب اتجاها معينا فاسدا على خط مستقيم .

يطلعنا تشارلس ديكنز فى كتابه « دوبسى وابنه » على قصة طالب فقير انهك نفسه فى العمل المدرسى ، فمات مأسوفا عليه فبكيناه . . وفى الوقت نفسه يطلعنا على مأساة « توتس » الطالب الغنى الفارغ العقل الضعيف الذاكرة الذى يحاولون أن يخلقوا منه شاعرا لاتينيا مطبوعا ! !

قلت أكثر من مرة إن تعليم النشء علوما لا تفيده ولاتتفق وأهواءه محاولات فاشلة لا تأتى بثمرة طيبة !

إذن فعلى ضوء ماذكرنا ، كيف نجهز المدنيين ؟ وأي ثقافة يجب أن يتناولوها ؟ الجواب على ذلك : على رجل الدولة أن يهيء للراغبين فى العلم أو فى أنواع خاصة

من العلوم كل الوسائل ، على أن يكون دقيقا فى اختياره نوع التعليم الملائم للطبقات .

على المدنيين أن يتعلموا القراءة والكتابة ، أى نوع من القراءة والكتابة ، قراءة الخطابات أو قراءة الشيكات ، بل عليهم أن يتعلموا أكثر من ذلك . . عد النقود مثلا ؟ ! ! عليهم أن يتعلموا بعض الحساب ، وعليهم أن يتعودوا النظام وأهمية احترام القوانين وأدب السلوك والذوق واللياقة ، وما عليهم أن يعملوه فى يومهم وما لا يجب أن يعملوه . . وغير ذلك من المعلومات الضرورية فى الحياة العملية . .

كل ذلك من مستوجبات تعليم هذه الطبقة ، أنصاف المتعلمين الذين تمتلىء بهم الدول ، ويغشون السواد الأعظم من الشعوب .

وأخيرا إن النصف المفقود فى تعليمهم هو النصف السياسى كما سنقف على ذلك فيما بعد . .

* * *

ويقول برنارد شو فى « المتعلم الفاسد »

« ح » يشكو التعليم اليوم من الفساد السياسى رغم أنه لم يشك من ذلك الألم فى « عصور الايمان » عندما كان لأوربا إله واحد وعقيدة واحدة . تخلصت من الهراطقة بإحراقهم جهارا نهارا . . وكان كل إنسان قد أعد ليكون كاثوليكيا مسيحيا ، يحترم القوانين الوضعية التى لا تقبل المناقشة أو الجدل بحال من الأحوال ، ولكن هذه النزعة لم تقيض لها الأزمان البقاء ، فسرعان ما انمحت واندثرت من الوجود .

وليس أدل على هذا الفساد السياسى من المحاولات الكثيرة التى كان أبطالها نفر من مشاهير رجال التاريخ . فقد فشل نابليون ، لأنه لم يستطع أن يجعل من أطفال أوربا « بونابارتيين » ، وفشلت امبراطورية ـ بسمارك هو هنزولرن ـ لأنها لم تسيطر على بقية العالم . وحل هتلر الإمبراطورية السابقة ، وأقام بدلها الهتلرية . واضطهد اليهود وحاول أن يخلق ألمانا أنقياء ، ولكن أمله هذا كان مجرد أضغاث أحلام !

وإن كان نابليون وبسمارك وقيصر وموسوليني وهتلر محقين في نظريتهم التي تقول بأن « لا نظام حكومي يمكن أن يعيش طويلا من غير أن تصاغ أطفال الدول في القالب الذي يلائم هذا النظام الجديد ويضمن له طول البقاء .. »

وعليهم جميعاً أن يتعهدوا حدائق غرسهم من وقت لآخر بالري والنماء ، وإبادة الخبيث من الزرع ..

والحكومات الصادقة الأمينة ، مستحيلة من غير مدارس صادقة وأمينة . ولكن المدارس الصادقة الأمينة غير قانونية تحت رعاية الحكومات المستبدة الطاغية . والتعليم الصادق الأمين خطر على الطغيان وقوى الجور والاستبداد ، وهذا الفساد السياسي يكاد يكون عاماً في العالم اليوم .

فالتعليم الديمقراطي لا يمكن أن يستقيم تحت الرأسمالية ، لأنه يقود إلى اعتناق الشيوعية التي تعمل الرأسمالية على هدمها وإبادتها وتقليم أظافرها على الدوام . وكل هذا حسن ، ولكن لا يجب أن يغرب عن البال ، أن الرأسمالية لا يمكن أن تتقدم أو تتحسن من غير التعليم الفني المطرد ، كما يجب أن تحصر إهتمامها في الناحية الثقافية ، وقد يكون محاسبوها بلهاء سياسيين ، ولكن عليهم أن يعرفوا أن اثنين واثنين يساويان أربعة وليس خمسة !! وعلى نجاريها أن يعلموا أيضاً أن اثني عشر قدماً أطول من اثنتي عشرة بوصة ، وعلى قباطنة بواخرها أن يعرفوا أن العالم ليس مسطحا !!

وقس على ذلك كل مبدأ ونظام ظهر إلى الآن !.

ليس في وسع حكومة ما أن تعمل من غير عقيدة ثابتة أو مجموعة وصايا . ولكنها مع هذا لن تستمر في هداية أطفالها بل ستضطهد الحراطقة من رجالها !

وخير علاج عام لمثل هذه الحالات أن نضع نظاماً خاصاً يكفل للنشء كل أمانة وسلامة ، وأن يتعلم الطفل أصول الدين بطريق السؤال والجواب ، وأن نجعل كل مقاييس الحكمة مفتوحة للمناقشة والجدال ..

هذا هو الاتجاه الصحيح ، ولكن ما دامت فرص مناقشة القوانين محدودة ،

ومحاولة تغييرها وإبدال غيرها بها محدودة أيضاً ، فمن الجلى أن الحل الوحيد لتغيير القوانين هو أن يخالف الناس القوانين حتى تموت ويحيا غيرها . وهذا طريق غير شرعى . بل إذا كانت الحكومات قد تبصرت لحلت القوانين الموضوعة وبدلت بها غيرها معقولة . وما وجدت المخالفات المتوالية والبطلان الأخير مكاناً فى الدولة .

ولذا فمن واجبنا أيضاً أن ندع أطفالنا ، عند ما يشبون ويصبحون فى حالة تؤهلهم لتفهم هذه الأشياء ، يفهمون أن القوانين والعقائد ما هى إلا وضعية من صنع الإنسان ، وليست أبدية خالدة ، ويجب أن تتغير وتتبدل بتغير حالنا وتقدم معرفتنا ، وإن كانت فى الواقع عوامل أساسية للنظام المدنى ، ومن غيرها تنفشى فى المجتمع روح الهمجية المطلقة والردة إلى حياة الغاب .

وتغييرنا لهذه القوانين يجب أن يكون فى غاية الحرص ومنتهاه ، فلا يتعدى حدود المعقول وإلا انقلب بنا الحال واستفحل الداء ..

وهناك شىء آخر لا بد من ذكره . وهو أن كل إنسان يجب أن يتعلم كل شىء . يجب أن نفرق بين الأذواق ، كما نفرق بين الكفايات . ومما لا شك فيه أيضاً أننا سنعد أنفسنا بلهاء إذا لم نعرف ما وراء الأشياء التي نعرفها جيداً . فكثيرون لهم مقدرة كبيرة على تذوق الأشياء . ولكن ليس عندهم مقدرة على إظهار هذه الكفاية . إنهم يقرأون كل رأى ومذهب فلسفى جديد ، ولكنهم ليس فى استطاعتهم أن يأتوا بنتيجة منطقية واحدة ، فى حين أن آخرين لا يعرفون القراءة أو الكتابة يأتون بنظريات معقولة .

وخذ لك مثلا أن آلاف النظارة يذهبون من وقت لآخر لمشاهدة مباراة فى كرة القدم ، أو إلى مبارزة أو مصارعة من غير أن يلعبوا الكرة مرة واحدة أو يضعوا فى أيديهم قفاز لعب . وآخرون يطربون لنغم موسيقى من غير أن يعرفوا شيئاً عن النوتة أو الآلات الموسيقية ذاتها . إنهم يعرفون القشور عن هواياتهم ، فى حين أن اللاعبين أنفسهم هم الذين يعرفون دقائق ألعابهم ..

ولنعد مرة أخرى إلى المدارس فنقول : إن المدارس فى عهدنا كانت سجونا ولا تزال كذلك إلى يومنا هذا بمعداتها للتعذيب والتنكيل ..

إن حياة الطفل يجب أن تنظم فى أجيالها المتعاقبة لتحيى رأياً قوياً بين الأجيال بأن هناك أشياء ثابتة يجب أن يعرفها كل إنسان، فالرأى العام ـ كما سبق أن ذكرت ـ غير موجود وجوداً تاما فى دائرة الطفل، يحتاج إلى تضييق الحرية لا إلى إطلاقها.

والتعليم يجب أن يأتى بثمرة الحرية وتحسين الحال. لا بمنح الجوائز والمداليات كما أن امتحانات المسابقات يجب أن تلغى إلغاء تاما، لأنها تمنح المتسابقين لذة خاصة لجهل غيرهم وفشلهم وتعاونهم على إحباط عزمهم والنيل منهم ودحرهم فى ميدان المسابقة. هنا ينشأ لون غريب من الكراهية بين الأفراد، والحقد بين نفوس الطلبة بعضهم لبعض. والتسابق يجب أن يكون فقط ـ كما أراه ـ بين الجماعات ليعاون الناس بعضهم بعضا ويتقاسموا المعرفة والعلم..

النظام أساس النجاح..

لهذا يجب أن يعيش الأطفال فى مجتمع منظم بمعاهده المنظمة التى تسعى إلى خير الطالب، وإلا لما وجب عليهم أن يعيشوا..

وليفهم كل إنسان أن البيوت والأسر والمدارس ليست معاقل وسجونا.. يجب أن يتعلم النشء ليعيش فى حرية أوسع، وليس للأشغال الشاقة المؤبدة.

إن التعليم ليس مقصوراً على الطفولة وحدها، فأنا فى عامى الثامن والثمانين ولا يزال أمامى الكثير مما يجب أن أتعلمه حتى فى طاقة كفايتى المحدودة..

ثالثا : الرجل الاقتصادى

كل الرجال اقتصاديون من مهدهم إلى لحدهم..

فالأكل والنوم، والحصول على سرير تحت سقف المنزل، والملابس الحامية للجسد، كل هذه أوليات لا بد منها لنا جميعاً، لأننا من غيرها نموت ونهلك. ومن أجل هذا فكلنا مشاكل اقتصادية لرجل الدولة.

إن تسعة أعشارنا يمكنهم أن يسدوا نفقـــة أسرهم بجنيهين فى الأسبوع. حتى إن مثل هذا المبلغ ليكفى الرجل الرأسمالى المتطرف لكيلا يقتل الأوزة التى تضع له البيض الذهبى...

يصبح الرجل اقتصادياً من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه عند ما يجوع أو يبرد أو يتعرى . وعند ما تطعمه وتلبسه وتأويه ، مهما كانت درجة بؤسه ، يتوقف عن أن يكون اقتصادياً ، بل يغدو مخلوقا كثير الهواجس ، زائغ البصر ، تتجاذبه عواطف شتى ، وحالات متباينة تختص فيما تختص بالفلسفة العقلية ..

خذ لذلك مثلا أن « كبير هارى » مؤسس حزب العمال المستقل خطب مرة فى مجموعة كبيرة من رجال بؤساء كانوا ينتظرون عملا بالمياومة فى ميناء لندن فى فجر يوم من أيام الشتاء القارس ، وكانت هذه الفئة أحقر فئة من طبقة العمال ، وكان يزيد بؤس فقرهم مطر غزير انهال عليهم كالسيل المنهمر فحدثهم كبير هارى عن الاقتصاد ، ثم أمطرهم بوابل من الأسئلة ، وعندئذ هب رجل من الجمع كان قد أسند ظهره أكثر من ساعة إلى حائط الميناء ونصف جسمه تحت أفواه القرب وقال : إنه استمع إلى خطاب المتحدث البارع ، ولكنه دهش لأن الخطاب لا يحوى شيئا فى السياسة ..

وهذا نوع من الرجال غريب ، مهما كان فقيراً إلا أن اهتمامه بمسائل بلده قد تتسلط على فكره فتخلقه بطبعه ميالا إلى الفلسفة العقلية ..

ومن واجبنا أن نجعل الرجل الاقتصادى أكثر اقتصادا مما هو عليه ، لأنه إذا ارتقى به الحال وارتفع مرتبه من جنيهين إلى أربعة مثلا ، كان عليه أن يتصرف التصرف الحسن ويعمل للفاقة حساباً ..

بل إنه من السهولة بمكان أن يصبح كل إنسان غنيا إذا ضيع كل أوقاته فى جمع المال ، بل إن كثيرا من عمال المصانع يربحون أضعاف أجورهم إذا قدموا آراء نافعة لتقدم العمل وبدلا من أن يرفع هؤلاء العمال معيشتهم ويعملوا على تحسين حالهم ، يتغيب العامل منهم ثلاثة أيام فى الأسبوع يقضيها فى عقر داره خاملا نائما أو متنزها أو متسكعا مادام معه المال . وقد تتكرر من هذا الفرد هذه العملية أكثر من مرة ، فيضطر صاحب العمل أن يضع حدا لكثرة « الغياب » بخفض أجرة العامل ، ومن هنا يضرب العامل أو العمال ، وتبدأ مشكلة كبرى تحل أخيرا باتفاق الطرفين على أن يعود العمال إلى المصانع كل يوم باستمرار كما كانوا عليه فى الماضى .

والآن فلننتقل إلى موضوع آخر ذى أهمية أخرى للرجل الاقتصادى، وهو عامل الحرب فى زيادة رأس المال.

للحرب منفعة كبيرة، كما أن لها أضرارها ومساوئها، فمن الناحية المالية مثلا إننى اقرضت الحكومة أكثر من مرة مبالغ كبيرة من المال بسعر لا بأس به يتراوح بين ٢٪ و ٥٪. كما أن الكثيرين غيري استفادوا فائدة كبيرة كهؤلاء الذين كانوا يبيعون المراكب القديمة بعشرة أضعاف ثمنها. ولا تقل لى بعد ذلك إن الحرب لا تكسب أحدا، لأننى أعرف أكثر!!

ولو كنت أبديت اهتماما زائدا من ناحية المال، فمما لا شك أننى كنت أثريت ثراء فاحشا كثراء أودلف هتلر وبنيتو موسولينى!

ولكننى اكتفيت بما تدره على مسرحياتى وكتاباتى وحقوق طبعها فى أوربا وأمريكا وتحول بى الحال وأصبحت أعيش عيشة تخالف العيشة القديمة، عيشة الطبقة الوسطى التى نشأت فيها، ولمع فيها نجمى، وبدأت عبقريتى تتفجر وتعمل عملها فى العالم بأسره فأثريت وأصبحت من أعظم رجال الاقتصاد فى العالم!!

رابعا ـ نظام الأحزاب فى بريطانيا

لا أحد فى هذه الجزر يفهم نظام الأحزاب الفهم الصحيح، ولا البريطانيون يعرفون تاريخها. وكل ما يعرفونه لا يتعدى أن الأحزاب تأسست فى الطبيعة البشرية ولهذا فهى أبدية سرمدية!! وعندما أقول إنه لا وجود لها فى بلادنا أو بحالسنا يظن الناس أننى مخرف أو جاهل أو مجنون. ويؤكدون لى وجود أحزاب المحافظين والمجددين والأحرار فى مجالس الشورى كما فى البرلمان.

ولكن ما هى الحقيقة؟ دعنى أضعها لك فى صيغة دراما قصيرة، لأنها تسهل على، ويلذ لك أن تفهمها على النحو الآتى:

[المنظر: قصر الألثروب.. مساكن آل سبنسر.. إيرلات ساندرلاند.. الملك الحالى: صاحب الجلالة وليم الثالث، يبلغ من العمر ٤٥ سنة،

صاحب ذاكرة حادة قوية ، ورجل تقوى وصلاح ، ومضيفه روبرت سبنسر ، الايرل الثانى ، يكبره بعشرة أعوام ، مشهور فى محاكم تشارلس الثانى وجيمس الثانى بعبقريته الفذة ودهائه فى السياسة ، الزمان عام ١٦٩٥]

روبرت : إن صاحب الجلالة قد أضفى على شرفا رفيعاً بزيارته مسكنى المتواضع ، فأنا لست كفؤاً يا مولاى لهذا التنازل العظيم ، ولذا فإنى على استعداد يا مولاى للقيام بأية خدمة تطلبونها . . .

وليم : نعم هناك خدمة . . . فقد ضاق بي معين تفكيرى ، وأريد نصيحتك ومشورتك . إنهم يتوقعون منى حماية الدين البروتستانتى فى أوربا من امرأة روما القرمزية اللون ! وعلى أن أحمى بلدك وبلادى من البربون . وأن أفعل كل شىء فى سبيل كل إنسان . . وأن أفعل كل شىء من غير مال وعتاد وجنود . . وليس فى وسعى أن أنظم خطط عام إلى الأمام بسبب هذا البرلمان البريطانى اللعين الذى انتخب ليحكم انجلترا . ويريد ما يريده الانجليز . أى أنه لا يريد أن يكون محكوماً أبدا . . وقد تتركنى فى لحظة من غير بنس أو جندى ! وهذا هو جنرال فرنسا الأعظم الذى ربح كل معاركها مات أخيرا وترك الملك لويس فى قبضة يدى الفارغة . وهذه هى اللحظة التى يهددنى فيها برلمانك بمطالبة السلم . وهذا غير معقول فليذهب برلمانك إلى الشيطان ! أما عن نفسى فسأعود إلى أمستردام ، وخير لى أن أصبح حراً طليقا بدلا من ملك لا حول له ولا قوة ! إنهم يريدون الحرية ! هؤلاء الفرسان الخنازير ! بل دعهم يحصلون عليها ، تلك التى تتحطم أشلاء لتدخل السرور على البابا ! الحرية هى الجسر الذى يعبر عليه الفرنسيون . . الحرية التى تذهب إلى الشيطان ولا يتدخل فيها ملك أو حاكم ! سألقى بالتاج فى وجوههم ، وأنفض غبار انجلترا عن قدمى إلا إذا أريتنى طريقا أجعل به البرلمان يطيعنى ، ويعمل بما آمره به . . .

روبرت : ليس فى وسعى عمل ذلك . . . ولكن يمكننى أن أريك طريقا يمنع البرلمان من عمل شىء على الإطلاق،عدا كسب أصوات الناخبين وتأجيله إلى أبعد مدة ممكنة !

وليم : وهل فى استطاعتك عمل ذلك ؟ وكل ما يعنينى هو مدنا بالمال والرجال لإنقاذ البروتستانيين من تنين البربون المخيف . وإذا لم استطع الحصول على المال أو الجنود فتاجك لا فائدة له عندى . ويمكنك أن تحصل على جيمس مرة أخرى . وبالطبع أنت تعرف أين تجده فى جيب لويس ! وفى استطاعتى أن أقطع بأنك على اتصال به أيها المرائى ذو الوجهين !

روبرت : أنا لست غير ذلك الرجل الذى صاغته الأوقات ، ولفحته شمس الزمن . فأنا على اتصال بكل إنسان ، فليس يدرى أحد ماذا يتمخض عنه المستقبل من أحداث ؟ ! وبودى لو استطعت أن أحول عقل مولاى عن التفكير فى أمر البروتستانتيين والجيش ولو لحظة واحدة . وأود لو استطيع أن أقنعك بأن من تحاربه هنا ليس الملك لويس ولكن البرلمان البريطانى ! !

وليم : حسنا ، وهل تريد أن تفهمنى ذلك . . ألم أقل لك ! !

روبرت : ابق على هذه الحقيقة يامولاى . ولا كن ما أكون على حد تعبيرك المرائى ، مدبر المكائد !

وليم : يالله . ! انه الواقع . . الواقع بتمامه حقيقة !

روبرت : وهل يتكرم مولاى ويزيد الكلمة لتكون « مدبر مكائد ناجح ! »

وليم : بل شيطان مدبر للمكيدة ، مرائى من الطراز الأول . هذا ما كان يجب أن أقوله . ماذا وراءك ؟

روبرت : وعندى يامولاي خطة لمعالجة البرلمان ، ولكننى إلى الآن لم أجد ملكا كفؤا قادرا على فهمها وتحقيقها . .

وليم : إذن فجربنى . .

روبرت : إنك ياسيدى آخر من يفهمها فى الأرض . . ولكنى سألقيها تحت

أقدامك الملكية . والآن عليك باختيار وزرائك بكفايتهم ومقدرتهم من غير نظر إلى أحزابهم ، فخر من هنا ومحافظ من هناك ، يكونون جميعاً وزارة واحدة ، ومن مجموعهم يتكون مجلس شورى مولاى .

وليم : وأى جديد أتيت به ؟

روبرت : نصيحتى لك يا صاحب الجلالة أن تختار وزراءك فى المستقبل من حزب واحد ، وأن يكون هذا الحزب مكونا للأغلبية الساحقة من نواب مجلس العموم .

وليم : إنك مجنون . من سمع بهذا من قبل ؟

روبرت : لكل شيء بداية ، يا سيدى . . فكر فى الأمر .

وليم : لقد فكرت مليا . . وهل تذكر أنك نسيت .

روبرت : أى شيء يا صاحب الجلالة ؟

وليم : إن غلب أعضاء مجلس العموم من الأحرار .

روبرت : لم أنس ذلك يا سيدى ، وعليك فى الحال التخلص من وزراء المحافظين ، وتستبدل بهم وزراء أحرارا .

وليم : ولكن من المحافظين . هل جننت ؟

روبرت : قريب اليوم الذى يجمع المحافظون فيه شملهم ويكونون أغلبية ساحقة ويهزمون حكومة الأحرار . وعندئذ تحل البرلمان ، وعندما يعود المحافظون من الانتخابات بأغلبية ساحقة تختار وزراءك من المحافظين فقط .

وليم : ولكن ما سر هذا الارتباك ؟

إنك ستتحدث بهدوء ورزانة كأنك تتحدث بالمعقول . ماهذه الخرافات ؟

روبرت : إذا كان صاحب الجلالة يعمل بما أشير عليه به ، فإننى أراهنك :

وليم : « بسرعة » صه !

روبرت : عفواً يا مولاى . كان يجب أن أقول إننى على استعداد لتضحية شهرتى

كمدبر مكائد ، وعلى كل سأتنازل عن هذه الشهرة ، إذا عمل جلالتكم بهذه النصيحة ، لأنه ما من عضو برلمان يتقدم للانتخاب مرة أخرى الا عن عقيدته أو مبادئه . ولكن السواد الأعظم من الناس لا يضحون مبدأه موضع الجد ، بل يظنون أنه سيتقدم من أجل العدالة ، سواء للحرب أم للسلم ، وسيان لديه ذهب التاج إلى هانوفر أو إلى أى مكان آخر ، ولكن الهدف الحقيق الذى سيتقدم من أجله هو : هل لحزبه أن يستمر فى الحكم ، أو يضيع نصف ممتلكاته على انتخاب آخر ليخسر مقعده إذا كان خصمه أقوى منه وفى استطاعته أن يبعزق المال عن يمين وشمال .

وليم : لا تكن أبله يا روبرت . . فلا بد أن أكون عبد الأغلبية . ولا سبيل إلى الطريقة التى ينجح بها الناخب أو يفشل ، لأنه لا دخل لهذا كله بالجيش أو المال اللازمين ؟

روبرت : هناك طريق واحد مشروع للتصويت للحرب أو لأى شىء آخر ، ويجب أن نؤمل كثيراً عليه . لأن أغلبية الأحرار أو المحافظين لم يصوتوا للاستلام إلى اعدائنا الطبيعيين الفرنسيين أو البابا !

وليم : ولكن البابا فى جانبى .

روبرت : ومن حسن الحظ أن قليلين منا يعرفون تلك الحقيقة سافرة . وهى أنه لا باباوية فى انجلترا .

وليم : إنك تحيك لى دسا . تريد أن تجعل الأغلبية فى مجلس العموم هى الحاكم الأصلى ، وتجعل الامبراطورية كدمية فى يده . وما دامت الاغلبية يصرفها عادة إنسان خارق الذكاء مثلك ، ومدبر مكائد من الطراز الأول . فسرعان ما ينقلب الحال ، ويصبح هو الملك المطلق وأنا لاشىء على الاطلاق !

روبرت : لن أصبح ديكتاتورا ما دام جلالتكم حيا ، لأنك يا سيدى لن تصبح لا شىء ، ولكنى أعطيك هذا الرأى الأخير ، فأنك إن فعلت ما أنصح به

فان يخيفك أحد حتى كرومول نفسه أو ليلبرن الذى سيضيع نصف حياته للحصول على مقعد فى البرلمان ، وعند ما يسعده الحظ ويحصل على المقعد المنشود ، فثانى ما يفعله أن يسعى إلى دخول الوزارة ، وعند ما تصل مطامعه إلى هذا الحد يصبح رئيس حزب ، ويكتفى بهذا القدر . وسيظن الناس أنهم أحرار، لأن عندهم برلمانا،وسيحاربون أوربا بأسرها تحت سلطانك وأوامرك . . .

وليم : إننى لا أفهم ، ولا أعتقد فيما تقول . . . ولكنى ما دمت عاجزا عن السير إلى الأمام خطوة واحدة فسأجرب نصيحتك ، فإذا فشلت فسأحصل على رأسك بكل وسيلة ممكنة .

روبرت : ستفعل بى خيراً يا سيدى وتريحنى من هذا الرأس الذى ظل على كتفى المتعبين طويلا . .

[وتمر خمس وعشرون سنة ويموت وليم وساندرلاند فى نفس العام ويظلان ثمانية عشر عاما فى كفنيهما . . فالملكة آن قد ماتت ، وأصبح جورج الأول ملكا على البلاد . ويظهر فى معمعان السياسة تشارلس ابن ساندرلاند وعمره ٤٥ سنة عضو فى حكومة الأحرار ، وروبرت والبول وعمره ٤٤ سنة ، ورغم أنه من أعضاء اليمين ولكنه يقود المعارضة فى مشروع « لائحة الأشراف والأمراء » . . ويحدث أن يلتقى الاثنان فى سانت جيمس وهما يتنزهان . ويعمد والبول الى أن يحيى زميله بإشارة من يده ، ولكن ساندرلاند يعمد إلى أن يدمجه معه فى حديث طويل ، وبعد قليل يدور الحديث الآتى :]

ساندرلاند:أود لو أحصل على تعضيدك لمشروعى الجديد . . فالحق أقول إننى أتوقع الهزيمة إذا عارضت المشروع . وأعجب لماذا لا تساعدنى . إن المسألة ليست حزبية فى شىء . فكلانا من الأحرار ، وكلنا يهمه الأمر .

والبول : ولكن كيف توصلت إلى معرفة ذلك ؟

ساندرلاند:حسنا ، إن الأمر واضح غاية الوضوح ، إننا الأحرار فوق رجال البرلمان فالحرية عندنا معناها التسلط والسيادة على البرلمان . إن للبرلمان قوتين

متضادتين تخافهما هما : الملك والرعاع الناخبون ، فأبى القديس الذى ورثت عنه عبقريته السياسية حمانا من طغيان الرعاع بنظام الأحزاب الذى خلقه خلقاً . . إنه هو الذى خلقك وجعلك فيما أنت عليه اليوم من نجاح كبير : أعظم منظم وقائد حزبى فى العالم . إنك مدين له بنجاحك .

والبول : لقد استنفد ذلك مبلغاً ضخما من المال . . فلكل رجل ثمنه !!

ساندرلاند: المهم هو ضمان المال لنا وليس للرعاع . ولكن ماذا عن النصف الآخر قوة الملك ؟

والبول : مسألة الملك قد صفيت منذ سبعين سنة خلت . .

ساندرلاند: لا يا عزيزى والبول ، لا يمكنك أن تقضى على الملكية بجرة قلم أو بضربة فأس ، بل إن قوة الملك مجسمة فى الأشراف الذين يعينهم فى أى وقت شاء ، وكل ما يهمنا فى مشروع الأشراف القضاء على هذه القوة والحد منها . . أى أننا سنحد من سلطة الملك ، ولن يتسنى له بأية حال أن يضيف شريفاً واحداً إلى العدد الموجود . . بالطبع إنك توافق ؟ !

والبول : أوافقك ؟ ! مستحيل . إن أباك القديس ظل وراء الملك وليم حتى أفهمه بأن نظام الأحزاب يعطيه السيطرة على البرلمان . وكانت النتيجة عكسية فاستخدم البرلمان سلطته فى مراقبة الملك . ولعل هذا يرضيك ، لأن معك سلطان الأغلبية ، وحتى إذا ما حصلت على هذه الأغلبية سخرت وهزأت بمشروع الأشراف . .

ساندرلاند: ولكن لماذا تناوئنا فى هذا المشروع بالذات الذى فيه خيرك وخيرنا ؟

والبول : إنك من الأشراف . أما أنا فنائب . إنك تريد سلطان اللوردات لتحطيم قوة الملك ، وأنا أريد أن يحفظ الملك سلطته وقوته على اللوردات والأشراف أمثالك . وعلى النواب أن يحافظوا على قوتهم هم أيضا . فأنا على علم بلعبتك ، فعقلى انجليزى وليس ألمانيا مثل عقلك !!

ساندرلاند: إنك ذكى جداً . إذ تذكر أنك نائب وسوف تصبح مثلنا فى يوم ما ...

والبول : بالطبع إذا حافظ الملك على قوته فجعلنى إرلا ... ومن يدري ! فقد يمنعه مشروعك من هذه المنحة . . .

ساندرلاند: لا تخف فهناك دائما وظيفة خالية ! !

والبول : وحتى هذا لا أقبله ، لأنه قد يقضى على . . .

ساندرلاند: إنك مستحيل . . عم صباحاً . . .

[ويتركه ويسرع فى سيره تاركا والبول يتنزه وحده . . .]

برنارد شو يتفرس فى صورة لزوجـــه
ويلاحظ تمثال شكسبير على المدفأة